علاقة مصر ببلاد كوش منذ العهد الساوي حتى الفتح الفارسي

(١) مقدمة

كانت بلاد النوبة منذ أقدم العهود مرتبطة بمصر ارتباطًا وثيقًا في معظم العصور، غير أن هذا الارتباط كانت تنحل عراه بعض الشيء في عهد الثورات التي كانت تشب في مصر من وقت إلى آخر، وقد ظلت الحال كذلك حتى عهد الأسرة الخامسة والعشرين، حين غزا الكوشيون مصر واستولوا عليها جملة، وظلوا يحكمونها حوالي قرن من الزمان إلى أن أجلاهم «بسمتيك الأول» عنها تمامًا حوالي عام ٦٥٥ق.م، وذلك حينما استولى على إقليم طيبة، وطرد آخر كوشي منها؛ ومنذ ذلك العهد بقيت دولة الفراعنة في «سايس» وفي «نباتا» منفصلتين بعضهما عن بعض. ويتساءل المرء الآن كيف يمكن تصوير العلاقات التي كانت بين الدولتين؟

وتدل شواهد الأحوال على أن الكوشيين لم يحاولوا الاستيلاء على مصر كرة أخرى، بل وجهوا كل اهتمامهم إلى الجنوب؛ إذ الواقع أن آمالهم كانت تتجه إلى الأرض السودانية الخصبة؛ ولا غرابة في ذلك فقد كانت المستعمرة المصرية القديمة لفراعنة مصر التي طالما أغدقت عليهم الخيرات العميمة، وذلك على عكس الأراضي القاحلة التي كانت تخترقها الشلالات في أعلى «وادي حلفا»، والشريط الطويل الضيق من الأرض المعروف باسم بلاد «النوبة السفلى»، التي تفصل مصر عن السودان. ولا بد أن نتعرف أولًا على الذكريات التاريخية التي ربطت مصر ببلاد كوش، والواقع أن الهزائم المستمرة التي تحملها القوم في مصر تساعدنا في الوصول إلى ذلك.

ومن جهة أخرى نعرف أنه لا «بسمتيك الأول» ولا ابنه وخليفته «نيكاو» قد تعدى سلطانهما حصن الحدود الجنوبية عند الفنتين؛ أي جهة الشلال الأول. على أن قيام حملة مصرية على بلاد الجنوب كان يقف في وجهها الضغط الكامن، الذي كان يتهددها من الشمال الشرقي، ويمنع ملوكها الساويين من أي عمل حربي في الجنوب؛ وذلك لأن الأحوال في آسيا الصغرى كانت دائمًا تدعو إلى الخوف والقلق، إذ كان يتوقع في كل لحظة أن يقوم جيش بلاد الشمال الشرقي كله بهجوم على مصر كما رأينا من قبل.

ومن جهة أخرى لا بد أن نعترف بوجود علاقات حربية أو اقتصادية بين المملكتين، يدل على ذلك أنه قد عثر في «ميت رهينه» (منف) على قطعة من مائدة قربان باسم الفرعون الكوسي «سن كا امن سكن» (حوالي ٦٤٣–٦٢٣ق.م) (راجع Cairo Museum, J. D. E. Nr. 41293; Daressy, A. S. 109, P. 183–4, Gauthier, L. R. IV, P. 53 Nr. 2).

ولا شك في أن مصر كانت قبل كل شيء في حاجة إلى المحاصيل السودانية، وبخاصة ذهب جبال بلاد النوبة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت بلاد النوبة الفقيرة في المحاصيل الزراعية في حاجة إلى استيرادها، ولو بكمية قليلة من مصر بعد أن استقلت عنها. وقد كانت تقف في وجه العلاقات التجارية على أية حال بين البلدين الشلالات التي كان لا يمكن اختراقها إلا في زمن الفيضان. وقد كان يزيد في هذه الصعوبات الطبيعية قبائل بلاد النوبة السفلى، الذين جبلوا على السلب والنهب، هذا وكانت السياسة الساوية متجهة نحو الشمال في حين كانت سياسة مملكة «نياتا» من جهة أخرى متجهة نحو الجنوب باستمرار، ومن ثم أصبحت العلاقات بين المملكتين تتناقص شيئًا فشيئًا، غير أنه حدث تغير في الموقف في عهد «بسمتيك الثاني»، كما سنرى بعد.

أما الأثر الثاني الذي نجد فيه علاقات بين مصر وبلاد كوش، فقد جاء في ورقة ديموطيقية مؤرخة بالشهر الرابع من عام ٤١ من حكم الملك «أحمس» (أبريل ٥٢٩)، عثر عليها في الفنتين ومحفوظة الآن بمتحف برلين (راجع Museum Berlin Nr. 13615. W. Ericksen, Klio. 34 (1942), P. 56–61)، وهذه الورقة خاصة على ما يظهر بسجل لأمير عن أناس ذاهبين إلى بلاد كوش، وقد جاء عليها البيانات التالية «كاتب ... مشاة (؟): ١٣٠ رجلًا، مجدفون: ٣٠ رجلًا، محارب: ٥٠ رجلًا، مشاة (؟) ١٣٠ رجلًا، «نوبي»: س رجلًا، فلسطينيون: ٦٠ رجلًا، سوري: ١٥ رجلًا.

ويفهم من هذه الأعداد أن الجنود الذين ذكرتهم كانوا ذاهبين لمحاربة بلاد كوش، أو لإخضاع بعض القبائل في بلاد النوبة السفلى، غير أن هذا العدد كان قليلًا لا يكفي لذلك.

وتدل شواهد الأحوال على أن هؤلاء الجنود كانوا في حراسة قافلة تجارية، وبخاصة لأنه كان معهم كتاب. على أن وجود مثل هذا الحرس من الجنود يدل على أن هذه القوافل كان من الضروري حمايتها من اللصوص، حتى تصل إلى مملكة «نباتا».

وهكذا نرى أنه من أول عهد الملك «بسمتيك الأول» إلى عهد «أحمس الثاني» كانت معلوماتنا لا تزال قليلة، من حيث المتون التي في متناولنا الدالة على العلاقات التي بين مصر وبلاد كوش. ولا نزاع في أن العلاقات السياسية بين المملكتين لم تقم بأي دور قط، ومن ثم بقيت الأحوال كذلك حتى ظهر «قمبيز» الفارسي في مصر عام ٥٢٥ق.م.

وسنحاول فيما يأتي أن نتحدث عن الملوك الذين حكموا بلاد كوش، من بداية الأسرة السادسة والعشرين؛ أي منذ خروج الكوشيين من مصر نهائيًّا على يد الملك «بسمتيك الأول»، وانزواء ملوكهم في نباتا عاصمة ملكهم في الجنوب، إلى أن جاء «قمبيز»، واستولى على الديار المصرية ثم غزا بلاد كوش وأخضعها لسلطانه أيضًا. وسنحاول جاهدين في هذا الباب ذكر كل ما وصل إلينا عن هؤلاء الملوك وما تركوه من آثار باقية في بلادهم.

وعلى الرغم من أن ملوك كوش قد قصروا همهم على تنمية موارد بلادهم والانزواء فيها، وبعدهم عن العالم الخارجي حتى الفتح الفارسي، فإنهم كانوا يلقبون أنفسهم بالألقاب الفرعونية، ويدعون ملك مصر حتى نهاية دولتهم، وحتى بعد أن هزمهم بسمتيك الثاني كما سنرى بعد.

ويرجع الفضل في كشف النقاب عن أسماء ملوك كوش، وترتيبها من أول عهد بسمتيك حتى نهاية الدولة الكوشية إلى البحوث التي قام بها الدكتور ريزنر، ونشرها في عدة كتب قيمة أماطت اللثام عن حقائق بقيت مجهولة حتى عهد قريب (راجع هذه المصادر في .The Harvard–Boston Archeological Expedition in the Sudan A Progress Report on Publication by Down Dunham, in Kush, Journal of the Sudan Antiquities Service Vol. III, P. 70 ff).

يضاف إلى ذلك ما قام به كل من الأثريين «جارستانج» و«جرفث» و«ماكا دم» من حفائر كانت نتائجها مثمرة عن كشف النقاب عن تاريخ بلاد كوش (راجع The Temples of Kawa by M. F. Laming Macadam in 4 vol. Oxford University Press London 1949 ff).

وعلى الرغم من أن قائمة الملوك التي وضعها الأستاذ ريزنر، هي الأساس الذي يسير عليه علماء الآثار عند التحدث عن ملوك كوش، فإنه توجد نقاط يكنفها الغموض

والإبهام، ولا أدل على ذلك من أن الملك الذي حاربه الملك بسمتيك الثاني وصده عن بلاده هو الملك «اسبالتا»، على حسب التاريخ الذي وضعه «ريزنر» لم يذكر لنا أي شيء عن هذه الحروب التي نشبت بينه وبين مصر، وكان الفوز فيها للجانب المصري كما حدثتنا النقوش المصرية التي عثر عليها حديثًا. يضاف إلى ذلك أن بسمتيك الثاني لم يذكر لنا اسم الملك الكوشي الذي حاربه، ومن أجل ذلك أفردنا فصلًا خاصًّا لهذه الحروب، وتناولنا فيه العلاقات بين الدولتين بشيء من التفصيل بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا. ثم أتبعناه بفصل آخر عن ملوك كوش حتى بداية العهد الفارسي.

(٢) محاولة ملوك كوش غزو مصر في عهد بسمتيك الثاني

لقد ظلت معلوماتنا عن العلاقات بين ملوك كوش ومصر بعد ارتدادهم إلى «نباتا» في عهد الملك «تانوت آمون» غامضة مبهمة إلى عهد قريب جدًّا، ويرجع السبب في ذلك بوجه عام إلى قلة المصادر، وقد ظلت الحال كذلك إلى أن جادت علينا الكشوف الحديثة ببعض الوثائق التي تكشف عن شيء قليل في علاقة البلدين الواحدة مع الأخرى، وأهم الوثائق التي وصلت إلينا في هذا الصدد اللوحات، التي تحدثنا بعض الشيء عن الحملة التي قام بها «بسمتيك الثاني» حوالي عام ٥٩١ق.م لدرء الخطر الذي كان يهدد البلاد المصرية من ناحية ملوك «نباتا»؛ وعلى الرغم من أن هذه الوثائق قد وصلت إلينا مهشمة، فإن درسها وتحليل ما جاء فيها يضع أمامنا صورة لا بأس بها عن الروابط التي كانت بين البلدين في كثير من الوجوه. وسنتحدث هنا عن هذه الحملة بشيء من التفصيل.

(٢-١) الملك «بسمتيك الثاني»

ذكر لنا «هردوت» بصورة موجزة[١] أن «بساميس» والد الملك «إبريز» لم يمتد حكمه على أرض الكنانة إلا ست سنوات (٥٩٤–٥٨٨ق.م) وقد قام في خلالها بحملة على بلاد كوش، ثم مات بعدها مباشرة. وقد فسر بعض المؤرخين تسمية «هردوت» للملك «بسمتيك الثاني» بلفظة «بساميس» بصورة مختلفة.[٢] وبعد حكم هذا الفرعون فترة مبهمة إلى

[١] راجع: Herodot, II, P. 161.

[٢] راجع: Mallet, Les Premiers Etablissements des Grecs en Egypte, (M. M. P. F., 12) P. 113 Note 3.

درجة ما تقع بين حكم الملك «نيكاو الثاني» (٦٠٩–٥٩٤ق.م) الذي قهر «أشعيا» وحث على القيام بالطوفان حول «أفريقيا»، وبين حكم الملك «إبريز» الذي كان لا يقل عن سابقه شهرة (٥٨٨–٥٦٨ق.م) فقد خف لمساعدة اليهود، وهو الذي أنزله «أحمس الثاني» عن عرشه بصورة رائعة، وقد ذهب بعضهم إلى حد القول: إن حكم «بسمتيك الثاني» كان لا يعد شيئًا مذكورًا.[٣] وهذا الحكم على «بسمتيك الثاني» يعد حكمًا جائرًا بعيدًا عن الدقة، إذ الواقع أنه على الرغم من قصر مدة توليه العرش، فإنه قد خلف لنا عددًا عظيمًا من الآثار الخاصة به هو، كما وصل إلينا عدد لا بأس به من آثار موظفيه العظماء،[٤] وهي في عددها تفوق ما عثر عليه من الآثار لسابقيه من الملوك. وتدل شواهد الأحوال على أن عهده يقع في اللحظة التي كانت فيها الأسرة الساوية، قد أخذت تدخل في طور تقدم مادي عظيم.[٥]

هذا ونجد الآن من جهة أخرى أنه يحق لنا أن نسأل إذا كانت الحقيقة الوحيدة من التاريخ المصري، التي رأى «هردوت» من الفائدة أن يقرنها بذكرى «بسمتيك الثاني»، وهي الحملة التي قام بها على بلاد النوبة، لم تكن في الواقع إلا عملية جغرافية محدودة، وأنه ليس لها أية أهمية سياسية كما يقال عنها عادة؟ والواقع أننا نرى عددًا عظيمًا من المؤرخين قد مثلوا حملة «بسمتيك الثاني» على بلاد النوبة بأنها جولة حربية دون شهرة، وأنها لم تتجاوز الشلال الثاني؛[٦] وعلى أية حال نجد أن بعض المؤرخين فيما سبق قد أرادوا أن يضفوا على هذه الحملة شيئًا من الأهمية، ونخص بالذكر منهم الأثري «بروكش»[٧] والمؤرخ «فيدمان»،[٨] وقد قال الأخير في هذا الصدد: «إن هذه الحرب كانت ذات أهمية عظيمة، إذ نرى فيها أنه بعد سنين طوال سادها السلم بين أثيوبيا (كوش)

---

[٣] راجع: Mallet, Ibid, P. 114.

[٤] راجع: Bull. Inst. Fr. D'Arch., T. L. P. 158 n. 1.

[٥] راجع: Wiedmann, Gesch., P. 633.

[٦] راجع: Maspero, Hist. III, P. 537–538; Hall, C. A. H., 3, P. 301; Gauthier, Précis de l'Hist. d'Egypte, I, P. 208; Moret, Hist. d'Orient P. 735–736; Meyer, Gesch. Alter, 3, Abt. 2 (1937), P. 147; Scharff, in Agypten und Vorderasein (1950).

[٧] راجع: Egypt under the Pharaohs, P. 323 (Ed. 1881).

[٨] راجع: Wiedermann, Gesch., P. 631.

ومصر، وكان في خلالها تاج البلاد مقسمًا بين «تانو تآمون» «وبسمتيك الأول»، قد عادت ثانية فترة نشبت فيها الحرب بين البلدين.»

وقد ظلت الأحوال غامضة بالنسبة لهذه الحرب إلى أوائل القرن الحالي، حين أخذت المعلومات عنها تتجمع لدينا شيئًا فشيئًا حتى أصبح في متناولنا عدة وثائق هامة، تكشف لنا عن مدى العلاقات بين البلدين من وجوه عدة. ففي عام ١٩٠٥م نقل الأثري «ماكس مولر» بالقرب من البوابة الثانية لمعبد الكرنك نقوش قطع من لوحة تاريخية، بقي عليها بقايا قصة حملة «بسمتيك الثاني» على بلاد كوش.[٩] وبعد ذلك بمدة قرر لنا الأثري «لفبر» خلال جمعه عدة آثار عن القائدين «أحمس» و«بوتاسمتو»، جاءت في النقوش الإغريقية الشهيرة التي وجدت في «أبو سمبل»، بصورة أكيدة أن النقوش الصخرية المنقوشة بالإغريقية والكارية والفنيقية على تمثالي «رعمسيس الثاني»، ليست إلا ذكريات لمرور جنود «بسمتيك الثاني» صوب بلاد النوبة.[١٠] هذا فضلًا عما وجد من آثار مصرية عن هذين القائدين «أحمس» و«يوتاسمتو»، توحدهما بالقائديْنِ اللذين ذكرا في النقوش الإغريقية كما سبق ذكره.

وأخيرًا في عام ١٩٣٧ عثر الأثري «مونتيه» في خبيئة معبد «آمون» في «تانيس» على الجزء الأعظم من لوحة تاريخية، قدمت لنا بيانًا جديدًا عن نفس هذه الحملة، وتؤرخ بوضوح هذه الحرب بالسنة الثالثة من عهد الملك «بسمتيك الثاني» (٥٩١ق.م).[١١]

ومما سبق يتضح أن هذه الحملة لم تكن ذات صبغة رسمية وحسب، بل كان لها أهمية خاصة في أعين الشعب المعاصر لها. ولا نزاع في أن ما ذكره كل من «بروكش» و«فيدمان» من أهمية لهذه الحملة له ما يعضده، إذ الواقع أننا نجد أن «بسمتيك الثاني» قد اضطهد ذكريات تسلط الكوشيين على مصر، وذلك بتهشيم أسماء ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، وهذه بلا شك ظاهرة لها علاقتها بالحوادث الحربية التي وقعت في السنة الثالثة من حكم هذا الفرعون.[١٢] وفي الحق أنه عند فحص الوثائق الخاصة بهذه الحملة، وجد أنها لم تكن قليلة الأهمية قط، بل تمثل على أغلب الظن طورًا دقيقًا في

---

[٩] راجع: Max Müller, Egyptological Researches, I, P. 22123, Pl. 12–13; Ibid. II, P. 185.

[١٠] راجع: B. S. R. A. A. 21, (1925), P. 48–57; G. I. G. No. 5126, cf, P. 187.

[١١] راجع: J. E., Caire, No. 67095; & Kemi 8, P. 39–40.

[١٢] راجع: Rev. d'Eg., 8, 215–239.

المعارك التي نشبت منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد بين مملكة «نباتا» ومملكة «سايس»، ويمكن القول مع كل التحفظات عن الجيوش المصرية أنها قد أوغلت وقتئذ في قلب السودان. ومهما يكن من أمر فإن هذه الحرب قد صحبتها عدة مظاهر كان من نتائجها الإشادة بالظفر الذي نالته مصر على الكوشيين. وهذه التحفظات التي ذكرناها من جانبنا ترجع إلى أن المصادر التي وصلت إلينا كانت من الجانب المصري وحسب، وهذا يذكرنا بما جاء على لوحة «بيعنخي» وانتصاراته على المصريين، فقد جاءت إلينا من جانب واحد وهو الجانب الكوشي وحده؛ ولذلك فإن الحكم بوساطتها يكون ناقصًا ومتحيزًا.

(أ) لوحة الكرنك

أول لوحة عثر عليها خاصة بانتصار المصريين على الكوشيين في حملة عام ٥٩١ق.م هي لوحة الكرنك كما ذكرنا آنفًا، وقد وصلت إلينا في حالة سيئة جدًّا. وتبتدئ اللوحة بذكر ألقاب «بسمتيك الثاني» كاملة، ومن المحتمل أنها كانت مسبوقة بتاريخ كتابتها، ويأتي بعد ذلك النعت «محبوب» «آمون رع» رب عروش الأرضين المسيطر على «أبت-سوت» (الكرنك)، و«منتو» سيد «طيبة»، يلي ذلك مديح قصير: ... الإله الكامل ... وأخيرًا نجد عبارة خاصة بالأقواس التسعة. والجملة التي تلي ذلك تقدم لنا شيئًا عن نشاط الفرعون عند بداية البيان عن الحملة: «وهكذا كان جلالته قائمًا بالتنزه على بحيرة ... «نفر اب رع» (بسمتيك الثاني) عندما ...»

والجمل الباقية من العمود الرابع تقدم لنا على ما يظهر بعض تفاصيل عن الأعمال التي كان يقوم بها حينذاك «بسمتيك»، فتحدثنا عن: «شجرات الجميز الشرقية، وكان يسلي قلبه وهو داخل للتأمل.» وهذه العبارات على الرغم من عدم تماسكها؛ بسبب تهشيم المتن ربما كانت تشير إلى شجر الجميز الذي كان يزين حافة البحيرة التي كان يتنزه فيها. ومن المحتمل أنه لما كان «بسمتيك الثاني» مشغول البال بمصير جيشه الذي سيره نحو الجنوب، وبقي هو في مصر كما ستحدثنا عن ذلك لوحة «تانيس» ونقوش «أبو سمبل» الكبيرة كان في حاجة إلى أن يرفه عن نفسه بنزهة خلوية (؟) وفي أثناء ذلك على ما يظهر وصل الرسول مبشرًا جلالته بظفر جيشه، كما تشير إلى ذلك نهاية السطر الرابع من المتن، ومن السطر الخامس يعلم (في الواقع) الملك النتيجة السارة عن عمليات جيشه الحربية؛ لأن ما تبقى من المتن يقول: إن جيش جلالتك الذي أرسلته على بلاد النوبة، قد وصل إلى إقليم «بنوبس» (سليمًا) (؟) وبدون خسارة (؟) وهذه الفقرة في متن الكرنك،

وهي التي بوساطتها نعلم أن «بنوبس» تعد مرحلة هامة في العمليات الحربية التي قام بها جيش «بسمتيك». وهذه المدينة المخصصة لعبادة إله الدولة «آمون» ولعبادة الإله «أوزير»، وهو الإله الآخر العظيم في بلاد كوش تظهر في الواقع في الوثائق الخاصة بملوك «نباتا»، بوصفها أقصى بلدة في الشمال بالنسبة للعواصم الكوشية الأربع العظيمة. على أن مجرد العلم بأن الجيش المصري قد وصل في زحفه إلى ضواحي هذه المدينة، يقرر بوضوح أن حرب عام ٥٩١ق.م كان قد وجه إلى المملكة الفرعونية السودانية، وكان هدفها الأقاليم الخاضعة لسلطان ملك السودان. وتدل الوثائق التي فحصت في هذا الصدد على أن «بنوبس»، تقع في إقليم «الشلال الثالث» وتقع على ما يظهر مكان جزيرة «أرجو». وعلى ذلك يكون الجيش المصري قد وصل إلى البلاد الثرية جدًّا التي تؤلف الجزء الشمالي من مديرية «دنقلة»، وذلك بعد أن اجتاز بنجاح العقبات الطبيعية، التي صادفته منذ دخوله الشلال الثاني حتى الخروج من الشلال الثالث.

ولا نعلم مما بقي من السطر السادس من هذا المتن، إذا كان ما جاء فيه هو استمرار للأخبار التي حملت لجلالته، أو أنه يقدم لنا بيانًا مستقلًّا عن العمليات الحربية، فقد جاء فيه: «كل بلدة أجنبية نحوه (= ضده) وقلوبهم كانت مفعمة بالشجاعة. وعندما علم أنه قد هزم (؟) ...» والظاهر هنا على أية حال أن المتن يشير إلى الجنود المرتزقة من إغريق وكاريين وساميين، وهم الذين كانوا مشتركين في الحملة بقيادة «بوتاسمتو». وقد نقش بعضهم أسماءهم على تمثالي معبد «أبو سمبل».

ومما تبقى من السطر السابع وهو: «يجعل الأعداء ... دون أن يشد واحد منهم عن قوسه عليهم لأجل ...» قد يجوز أنه يعني أن المصريين قد داهموا عدوهم قبل أن يستعد لمحاربتهم، وعلى ذلك يمكن أن نكمل المتن بما يأتي: «هزم العدو دون أن يكون في مقدور واحد منهم أن يركب سهمه ليفوقه.»

وما بقي من المتن في الأسطر الباقية نفهم منه بصورة مبهمة أن العدو قد أسر، وبعد ذلك ينتهي البيان عن الحملة، ثم يأتي تقديم القربان شكرًا للإله على نجاح الحملة. هذا ما أمكن استخلاصه من هذه اللوحة مع كل تحفظ.

(ب) لوحة «تانيس»

هذه اللوحة محفوظة أحسن من السابقة نسبيًّا، وتقدم لنا بعض تفاصيل تخول لنا أن نستنبط منها أن الحملة التي أرسلت إلى بلاد النوبة في السنة الثالثة من حكم

«بسمتيك الثاني»، كانت موجهة فعلًا إلى مملكة «نباتا»، وأنها أوغلت على ما يحتمل إلى مسافة بعيدة في الجنوب.

وصف اللوحة

نشاهد في المنظر الذي يزين أعلى اللوحة الملك ممثلًا وهو يقدم قربانًا سائلًا لثالوث «طيبة»، الذي كان يعبد في «تانيس» وهو «آمون» و«موت سيدة أشرو» و«خنسو»، هذا إلى إله طيبة الحربي «منتو»، وخلف هذا الإله الأخير نقرأ صيغة حماية خاصة بالملك: «حماية حوله،[١٣] مثل «رع» أبديًّا». وفي الجزء الأسفل من اللوحة ثلاثة عشر سطرًا تحتوي على أسماء «بسمتيك الثاني»، ومقدمة ذكر فيها على حسب المعتاد الأعمال الخيرية التي أنجزها الفرعون، وأخيرًا يذكر لنا بيانًا مفصلًا عن الحرب، وهو خارج عن حد المعتاد قليلًا، ويشتمل على حقائق تاريخية أكثر من متن لوحة الكرنك السابقة.

الترجمة

ألقاب الملك: حور ممتاز القلب (منخ اب) سيد التاجين (وسر رع). حور الذهبي (سنفر تاوي الملك «نفر اب رع») ابن رع بسمتيك عائشًا أبديًّا وسرمديًّا (؟) (٢) محبوب «آمون، (رع)» سيد (عروش الأرضين) (؟) سيد الـ ... «لموت» و«خنسو» و«منتو» سيد «طيبة»، («حتحور» القاطنة في) إقليم «رع نفر»، والتاسوع الموجود في مروج (٣) (سايس معطى) الحياة والثبات والقوة مثبت في مكان حور الأحياء.

المقدمة: وهكذا فإن جلالته الذي يحب الإله أكثر من الكل (٣)، أمضى وقته في عمل ما هو مفيد (٤) للآلهة بتجديد معابدهم التي آلت للخراب، وتموين موائد قربانهم وإمداد أدواتهم، وقد عمل له مكافأة على ذلك وهي الشجاعة والقوة.

حملة السنة الثالثة: ذهب إنسان ليقول لجلالته في السنة الثالثة من تتويجه: إن بلاد النوبيين ... تفكر في محاربتك (؟) (٦) وقد جعل جلالته جيشًا يسير تجاه بلاد «شاس»، وإشراف القصر معه. وهاك فإنهم قد وصلوا إلى ... وكانت هذه مقر الكور (= الملك)

[١٣] هذا التعبير لا يزال باقيًا عند العامة: إذ عند الرقي يقال: اسم الله حواليك.

الذي كان فيها، وكذلك إلى مدينة تدعى «تادهن». وعندئذ ذبحهم جيش جلالته ووقعت مذبحة عظيمة بينهم. وهاك فإنهم ... الكور (= الملك) الذي كان في ... في المقر (؟) التابع لـ ... وقد ذهب معه ... (٩) ... هم (يحارب) مع جيش جلالته. وعلى ذلك قتل (١٠) ... هم وهاك فقد وجه الكور ... الذين عملوا هناك، وقد استولى على أشجارهم (١٢) ... صورة (؟) من ... (١٣) «بسمتيك» عائشًا أبديًّا معطى الحياة مثل «رع» أبديًّا.

وهذا المتن على ما به من فجوات يمكن أن نتتبع فيه سير الحوادث، دون كبير عناء من السطر الخامس إلى السطر السادس؛ وذلك أن مقاصد النوبيين العدائية قد حتمت على «بسمتيك الثاني» أن يسير عليهم جيشًا بقيادة كبار رجال أشرافه. وأهم النقوش الصخرية التي وجدت على صخور «أبو سمبل»، تؤكد أن الملك لم يتعدَّ في سيره مع الجيش حدود «الفنتين»، بل بقي في الأراضي المصرية، ووكل أمر توجيه الأعمال الحربية للقائدين «أحمس» و«بدي سمتاوى» (بوتاسمتو)، وبعد ذكر أول انتصار ناله الجيش المصري على ملك كوش الذي أشير إليه بكلمة «كور» في ... ر-با» و«تادهن»، تبتدئ مرحلة جديدة في الحرب ذكرت في فقرة مهشمة، جاء فيها ذكر مكان جديد ... وشخصية جديدة يظهر أن لها علاقة بالكور (= ملك). ونهاية المتن ممزق جدًّا، وأكثر من نصف الأسطر من ٩ إلى ١٣ ناقص. هذا ونفهم من بين السطور أن الجيش المصري قد تقابل كرة أخرى مع الكور (سطر ١٠) وخرب بساتين الكوشيين، وهذه كانت عادة متبعة عند الجيوش المصرية في كل الأزمان.[١٤] ونفهم تمامًا أن الجيش في اقتفائه أثر العدو قد نال انتصارات جديدة، وأنه من حقنا أن نفرض أنه قد وصل فعلًا حتى بلاد «شاس»، أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك، فإن ذكر هذا الإقليم هنا بوصفه هدف الحملة (كما جاء في السطر السادس) يعد تضليلًا مشينًا!

ولما كانت لوحة الكرنك قد ذكرت «بنوبس» بوصفها إحدى مراحل الحملة، فإنه يتحتم علينا أن نضع بلاد «شاس» على مسافة من جنوبي الشلال الثالث، وهي الهدف الذي كان يرمي إليه الملك وجنوده، كما أنه ينبغي أن تكون مركزًا هامًّا لبلاد النوبة. وأغلب الظن أنها إقليم شاسع يحتوي على عاصمة الأمير المعادي. وتدل البحوث على أن

[١٤] راجع: Bull. 50, P. 175, Note 3.

هذا الإقليم يمكن أن يكون إقليم «صنم»، الذي وجد فيه هذا الاسم أو الإقليم الشاسع الممتد حول العاصمة الملكية بما فيه «صنم» نفسها و«نباتا» وجبانتي «نوري» و«الكورو» اللتين دفن فيهما ملوك كوش.[١٥] ومن الجائز أن «تاشاس» (بلاد «شاس»)، التي كانت هدف الجيش «الساوي» عام ٥٩١ق.م كانت تمثل العاصمة نفسها لمملكة كوش، وتقع قبل الشلال الرابع بقليل.

هذا ونعرف من لوحة «تانيس» فضلًا عن ذلك أن أول تصادم وقع بين المصريين والأثيوبيين بالقرب من مدينة هامة، ورد اسمها مهشمًا بعض الشيء، وكذلك بالقرب من بلدة تدعى «تادهن» (ومعناه المرتفع)، وهذا الاسم قد أطلق على أماكن كثيرة في مصر، قد ثبت أنه اسم مدينة سودانية، وتقع بين «نباتا» و«جمأتون»، ويحتمل كثيرًا أنها كانت تحتل مكان «دنقلة العجوز» الحالية، وقد كان على الجيش المصري لأجل أن يهدد العواصم الكبيرة الكوشية، وهي «بريميس» (عمارة شرق) و«بنوبس» و«جمأتون» (الكوة) و«مراوى» (مروى؟) و«نباتا» أن يسير على الشاطئ الأيمن. والواقع أن «دنقلة» هي المدينة الوحيدة الواقعة في الشرق بين الشلال الثالث والرابع، وتقع على مرتفع كبير صخري، وترجع أهميتها إلى دورها القديم الذي لعبته بوصفها عاصمة المديرية، وهذه نظرية مقبولة.

هذا ونعلم أن كلمة «كور» التي نجدها مركبة مع كلمات كثيرة كوشية، تقابل كلمة «ملك» في المصرية القديمة.[١٦]

(جـ) أهمية الحملة

تدل شواهد الأحوال على أن السبب الذي حدا بمعظم المؤرخين، ألا ينظروا إلى هذه الحملة إلا أنها حركة استراتيجية، وأن أهميتها السياسية محدودة جدًّا، هو الموقع الجغرافي للنقوش الصخرية التي خلفها لنا كثير من جنود «بسمتيك الثاني» المرتزقة في «أبو سمبل». فعلى ساقي تمثالي «رعمسيس الثاني» الضخمين، نجد أن جنودًا كاريين قد نقشوا ستة متون سيكشف النقاب في البحوث الأناضولية عن معناها في القريب العاجل على ما نعتقد.[١٧]

---

[١٥] راجع: Bull. Ibid. P. 176.

[١٦] راجع: Bull., 50, P. 186 ff.

[١٧] راجع: Robert, Hellinica 8, (Paris (1950)) P. 5 ff.

ولا بد أن نذكر هنا وجود نقوش كارية في مقبرة «منتومحات».[١٨] وبجانب هذه النقوش توجد أسماء كثيرين من الفنيقيين كانوا قد جندوا من مستعمرة مؤسسة منذ زمن معين في مصر. وأخيرًا يوجد نقش صغير إغريقي مؤلف من خمسة أسطر، يذكر لنا كيف يميز عدد كبير من الأجناد من أصل «أيوني» و«دوري». وقد كتبت إمضاءاتهم حول النقش التالي:[١٩] الملك «بسمتيك» قد أتى حتى «الفنتين»، وهؤلاء الذين ساحوا مع «بساما بسمتيكوس» بن «تيوكليس»، وصعدوا منحدرين إلى «كركيس» بقدر ما يسمح النهر قد كتبوا هنا وكان «بوتاسمتو» يقود الفرقة الأجنبية «وأحمس» يقود المصريين[٢٠] ... وتدل الترجمة التقليدية على أن العلاقات الإغريقية الدالة على أقصى نقطة وصل إليها أصحاب الإمضاءات لهذا المتن، لا يمكن أن تشير إلا إلى الشلال الثاني. وهذه الترجمة أصبح لهذا من الصعب الأخذ بها؛ لأن وصول الجنود الساويين إلى إقليم «بنوبس» يدل على أنهم قد اجتازوا الشلال الثالث. ويستحسن إذن أن يبحث في الجنوب عن هذه البلدة الأخيرة في المنطقة الصعبة، التي عاقت رجال «بسمتيكوس» (= بسمتيك) أي: على الأرجح عند الشلال الرابع.

وهذا يحتم على ما يظهر أن الجنود الذين أرسلوا إلى بلاد «شاس» السالفة الذكر قد وصلوا فعلًا إلى إقليم «نباتا»، وعلى ذلك تكون «كركيس» واقعة بعد هذه العاصمة على ما يظن، وهي المكان الذي فاخر بعض الإغريق أنهم تعدوه خلال الحملة. واسم هذا المكان على أية حال ليس معروفًا لنا بالإغريقية في هذه الصورة، ولكنه يمكن أن يكون مقابلًا صوتيًّا لاسم من الأسماء العدة القديمة أو الحديثة في السودان، فقد يمكن تقريبه من جبل كولكيلي، وهو محطة صخرية تشرف على النهر عند مدخل سهل «دنقلة»، وكذلك من الجائز أن تكون في موقع المكان القديم «كوركوس» Korkos، حيث كانت توجد قلعة تحمي المرور في عهد الدولة الحديثة بعد الشلال الرابع، وإذا أخذنا بالنظرية الأخيرة، فلا بد أن نعترف أن جيش «بسمتيك الثاني» قد أوغل حتى الشلال الخامس، وعلى أية حال فإنه ليس لدينا حجج يمكن أن نبرهن بها على أن «كركيس»، يجب أن توحد ببلدة «كولكيلي» أو «كوركوس» (= حجر المروا). وعلى أية حال فإن البلاد المركبة أسماؤها مع

---

[١٨] راجع: Leclant, Orientalia N. 5. 20, P. 474, Pl. 64.

[١٩] راجع: L. D., 6, 98 (516, 517, 519) et 99, (515, 528, 529, 530, 534).

[٢٠] راجع عن الدور الذي قام به كل من هذين القائدين في هذا المؤلف. Bull. No. 50, P. 188, Note 7.

كلمة «كرك» أو «كلك» تقع جنوبي الشلال الثالث بعد بلدة «بنوبس»؛ ولذلك فإنه يجوز تمامًا الأخذ بالنظرية القائلة: إن حملة عام ٥٩١ق.م قد وصلت خلالها الجيوش المصرية حتى مرتفع «دنقلة». وعلى أية حال فإنه مما يمكن تصوره أن الجود المصريين بعد احتلال إقليم العواصم (شاس)، قد تابعوا سيرهم في اقتفاء العدو حتى الشلال الرابع، وأن جماعة منهم قاموا بالاستطلاع شاقين طريقهم حتى شلالات «السليمانية».

وإذا أردنا أن نستخلص نتيجة قصوى من الإيضاحات والتفسيرات، التي أوردناها هنا من متون الكرنك و«تانيس» و«أبو سمبل»، فقد يجوز لنا أن نكيف الحوادث التي وقعت في السنة الثالثة من عهد «بسمتيك الثاني» في الصورة التالية، ولكن مع كل تحفظ ممكن، إذ إن ذلك لا يخرج عن نطاق النظريات البحتة:

تدل شواهد الأحوال على أن ملك «كوش» كان يتأهب لمهاجمة «بسمتيك الثاني»، وأن الأخير قد بادره مباشرة بجيش لمهاجمته، وصاحبه بنفسه حتى «الفنتين». وقد تعدت الفرق الحربية التي كان يتألف منها جيش «بسمتيك»، وهي التي كانت تحت إشراف عظماء بلاطه الفنتين، ثم اجتازت الشلال الثاني ثم تابعت السير حتى وصلت إلى إقليم «أرجو»، وذلك إما بعد أن قام الجيش بالسير الشاق إلى بطن الحجر، أو اخترقوا على الأقدام الإقليم المقفر الذي يحاذي النهر في هذا الجزء من مجراه. والظاهر أنه كان قد نال نصرًا مبينًا على ملك كوش في سهل «دنقلة»، ثم واصل سيره نحو «نباتا». ومن المحتمل أن هذا الجيش قد اجتاز هذه العاصمة بمسافة، وخرب بلاد العدو ثم عاد إلى مصر حاملًا الغنائم الكثيرة وسائقًا أمامه الأسرى. ومن المحتمل أن بعض الجنود الإغريق قد أوغلوا في سيرهم إلى أعالي النهر حتى الشلال الخامس، وعند عودتهم تركوا في طريقهم ذكرياتهم على آثار «أبو سمبل».

وعلى الرغم من المقارنات التي أمكننا أن نقررها هنا في موضوع الأماكن «شاس» و«تادهن» و«كركبس»، تظهر لنا أنها تتفق كتابة مع فكرة حملة قام بها المصريون على السودان، ولكن لا يمكن أن نخفي أن تحديدنا لمواقع هذه الأماكن لا يزال غير مؤكد، وعلى ذلك يجب أن نكون على حذر من الصورة التي اقترحناها هنا. ولكن على أية حال يمكن قبول هذه النظرية بوصفها مادة للعمل بها وحسب. ومهما يكن من أمر فإنه بقدر ما تسمح به نقوش لوحة الكرنك، نرى أن قراءة اسم «بنوبس» وموقعها يظهر مؤكدًا، وعلى ذلك يمكننا على ما يظهر أن نعترف أن جنود «بسمتيك الثاني» قد وصلوا على أقل تقدير إلى «دنقلة». وعلى أية حال فإن التاريخ الذي اتخذ لبداية تهشيم أسماء

ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، وكذلك استعمال لفظة «كور» للدلالة على زعيم الأعداء في متن «تانيس»، وأخيرًا ذكر المدينتين التابعتين لمملكة كوش في لوحتي النصر (وهما «بنوبس» و«تادهن»)، يحتم علينا تقريبًا قبول النتيجة التالية: كانت حملة عام ٥٩١ق.م عملًا حربيًّا على مملكة «نباتا» التي غزت ممتلكاتها الجيش المصري.

وتدل الأحوال في مصر نفسها على أن المظاهر التي صحبت هذه الأعمال الحربية، أو جاءت بعدها كانت تنطبق مع خطورة مثل هذا الحادث، ومع الانتصارات التي أحرزها الجيش المصري بالنسبة لملوك كوش وعلاقتهم مع مصر، فنجد:

أولًا: أن ملوك «نباتا» الذين حكموا مصر سابقًا، أخذوا يعملون على استرجاع ما فقدوه من اسم. والواقع أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الذين كانوا يعدون أنفسهم ملوكًا شرعيين كانوا يعتبرون في مصر مغتصبين، وأنهم أفراد ارتكبوا جريمة التعدي على سلطان البلاد المصرية، وعلى ذلك فإن ملوك الأسرة الساوية قد محوا ذكرياتهم — وهذا أمر كان لا بد منه لبقائهم في عالم الآخرة — وقد أنكروا في الوقت نفسه حقوق أمراء كوش في شرعيتهم، التي اكتسبوها على عرش مصر، هذا بالإضافة إلى أن المصريين قد هشموا المظاهر الخارجية، التي يمكن أن تذكر أتباعهم في مصر بهذه الحقوق. فهشمت طغراءات «بيعنخي» وأخلافه على آثارهم وآثار المتعبدات الإلهية.[٢١] ومن ثم نجد في المعابد أن أسماء ملوك كوش كانت لا تحترم قط، وتهشم كلها إلا أسماء الآلهة، ولم تفلت من يد المهشمين إلا في حالات شاذة.[٢٢] وقد كانت الآثار الجنازية والآثار الخاصة، وكذلك الآثار الصغيرة وبصفة عامة كل الآثار التي كانت لا تقع تحت نظر المهشم، مثل النقوش الصخرية وشواهد قبور الحيوان المقدس ولوحات الهبات، كانت كلها في العادة لا تمسها يد المضطهدين، وذلك بسبب أنها كانت محجوبة عن الأنظار بتماثيل قريبة منها أو موضوعة تجاه الجدار، وبذلك فإن الطغراءات التي كانت عليها لا ترى. هذا ونجد أن ألقاب «بسمتيك الثاني»، كانت في كثير من الأحوال تحل محل اسم مهشم من ملوك كوش اللهم إلا في سلسلات النسب كما هو مفهوم.[٢٣]

---

[٢١] راجع: Rev. D'Eg., 8 P. 215 ff.

[٢٢] راجع: Ibid. P. 218 N. 1; P. 222, N. 3; P. 222, N. 4; P. 224, N. 1.

[٢٣] راجع: Rev. d'Egypte, 8, P. 234–237.

ثانيًا: لوحظ أن على جدران عدة مباني «طيبية» من التي يكون عليها اسم ملوك النوبة مهشمًا أن الصل المزدوج، الذي كان يعد الميزة الخاصة بلباس الرأس عند ملوك كوش كان يكشط أو يصلح ليصير صلًّا واحدًا؛ وذلك ليتحول بهذه الكيفية من صورة ملك كوشى إلى صورة ملك مصري تقليدي، إذ كان ملك مصر لا يلبس إلا صلًّا واحدًا. وهذا التغيير لم ينحصر فقط في الصور التي في المناظر، بل قد شوهد كذلك في لباس رأس تمثال اللك «شبكا» الضخم.[٢٤] وأفظع من ذلك ما نجده في كثير من تماثيل الملوك، وعلى بعض المناظر إذ نشاهد أن الصلين قد محيا محوًا تامًّا. وكل هذه الحالات تدل تمامًا على ما كان يرغب فيه «بسمتيك الثاني» من القضاء نهائيًّا على الصفة النوبية لهذه الصور، وكذلك شغفه بأن يمحو في الوقت نفسه أي رمز ظاهر لادعاءات الكوشيين بالملكية المزدوجة؛ أي على مصر والسودان.

ثالثًا: نجد في الوقت نفسه أنه قد نشأت التقاليد الشعبية التي جعلت من «الكور» (أي: الملك) العدو الأول لمصر ومن كوش شيئًا مستهجنًا، كما كان الإله «ست» إله الشر يوحد بكلمة نوبي.

وهذه الظواهر السلبية كانت قد تضاعفت بدعاية إيجابية تميل إلى إبراز عظمة الانتصار الذي أحرزه «بسمتيك الثاني». وهذا النوع من المظاهر بوساطة النقوش الدالة على الانتصارات والنقوش الخاصة بالمديح، واغتصاب انتصارات أحرزها السلف، وغيرها لم تكن تشاهد إلا قليلًا في عهود الملوك الساويين السالفين؛ ولذلك فإنه يصعب علينا ألا ينسب كثرتها وتنوعها إلى شيء هام. ولا نزاع في أن حربًا على ورثة الأسرة الخامسة والعشرين قد أثارت أمورًا سياسية داخلية بقدر ما أثارت أمورًا سياسية خارجية؛ فقد كان فرعون «سايس» يريد أن يكسب أمام شعبه مكانة من النفوذ الخلقي، الذي نتج عن هذه الانتصارات.

ومن أجل ذلك نجده قد أقام لوحات مبينًا فيها العلاقات المختلفة للحملة، فمنها لوحتا «تانيس» والكرنك، ويحتمل كذلك لوحة الشلال، التي بقي جزؤها الأعلى محفوظًا، وتشبه في توزيع نقوشها توزيع نقوش الآثار الطيبية، فنجد على لوحة الكرنك أن الملك يلقب «محبوب آمون» سيد عروش الأرضين و«مين منتو» سيد «طيبة»، وعلى لوحة «تانيس»

[٢٤] راجع: Bull. Inst, 50, P. 193 Note 3.

نجد أن الإله الأخير يصحب ثالوث «طيبة» في المنظر كما في المتن. ويمكن الإنسان أن يتساءل فيما إذا لم يكن المقصود في هذين الأثرين هو أن يربط «بسمتيك» المظفر بإله «طيبة» الحربي؟

ونجد مواجهًا لبلاد النوبة على الصخور المحيطة بالشلال الأول، وفي «الفنتين» و«كونوسو» و«بيجه» عددًا عظيمًا من الطغراءات وأسماء الأعلام منقوشة باسم الملك «بسمتيك الثاني» مما يشهد — مع عدم وجود طغراءات مماثلة لأسلافه — على أنها كانت قد نقشت في أثناء إقامة هذا الملك في «الفنتين»، أو في أثناء عودة جيشه مظفرًا، وعلى أن عزيمة فاتح بلاد كوش كانت ترمي إلى توطيد سلطانه على الحدود الجنوبية لمصر.

هذا وقد بالغ «بسمتيك الثاني» في تأكيد انتصاره على بلاد النوبة بأنه اغتصب آثار ملك آخر، ممن قهروا بلاد كوش، فنجد في منظر بالكرنك يمثل «شيشنق الأول» أمام الإله «آمون» أن «بسمتيك الثاني» قد وضع أسماءه مكان أسماء الملك «شيشنق» العظيم مع أنه لم يكن بينهما عداوة. والمتن الذي يتبع المنظر بانتصارات «شيشنق» وبوجه خاص إخضاعه لبلاد النوبة.[٢٥] وعلى ذلك فإننا في حل من أن نتساءل فيما إذا كان هذا الاغتصاب الشاذ كان سببه الرغبة الشديدة من جانب «بسمتيك» في أن يكون فاتحًا لبلاد كوش بطريقة اقتصادية لا تكلفه حفر نقوش جديدة، بل اقتصرت على وضع اسمه بدل اسم ملك عظيم آخر فتح فيما مضى بلاد النوبة؟

ويلحظ أنه قد أدخل عرضًا في طغراء «بسمتيك الثاني» النعت «نب بحتي» (= رب القوة)،[٢٦] وهذا اللقب كان يحمله إله الحرب والفاتحون العظام مثل «أحمس الأول». ولدينا نقش «لبسمتيك الثاني» على قاعدة تمثال بولهول يلقب فيه هذا الفرعون أنه: «الإله الكامل» الذي يضرب آسيا ... والنوبيين والذي خوفه يقضي على الشخصيات الشريرة.[٢٧] ومن المحتمل جدًّا أن هذه العبارة ليست إلا مثالًا من ألقاب المدائح، التي كانت يمكن أن تظهره بمناسبة انتصاره على الكوشيين.

---

[٢٥] راجع: Müller, Egyp. Researches 2, PP. 145–152.

[٢٦] راجع: Couyat-Montet, Hamm., 71, No. 100; Rev. d'Eg. 8, P. 238.

[٢٧] راجع: A. S., 34, P. 129–130.

ويظهر لنا الاسمان الجميلان «نفر اب رع قوي» و«نفر اب رع» رب الشجاعة اللذان يحملهما كل من «أحمس» و«بوتاسمتو» قائدي «بسمتيك الثاني»، على أنهما كانا قد أعطيا إياهما مكافأة على شجاعتهما في هذه الحرب.[٢٨]

ومن المحتمل جدًّا أن القائد «حور» المسمى «نفر اب رع أم ابت»؛ أي «نفر اب رع في الأقصر» قد سمى نفسه بهذه التسمية؛ لأجل أن يذكر الناس باشتراكه في الحملة الوحيدة الباهرة، التي أرسلها «بسمتيك الثاني» على بلاد كوش. ولا نزاع في أنه كان معاصرًا لهذا الملك، وقد أدخل في ألقابه النعوت التالية: رجل ثقة لسيد الأرضين والذي نشر خوف جلالته في بلاد الأعداء، وألقى الرعب بين أولئك الذين كانوا عقبة في طريقه.[٢٩] ولدينا شخصية معاصرة «لبسمتيك الثاني» يدعى «بزا»، وقد مثل نفسه مقدمًا صورة ملك في هيئة تقليدية لملك طفل يدوس الأقواس التسعة.[٣٠]

وأخيرًا قد لا يكون من المستحيل أن السياحة التي قام بها «بسمتيك الثاني» إلى فلسطين مصحوبًا بكهنة كانوا يحملون له طاقة الأزهار الرمزية، التي قدمتها الآلهة اعترافًا بالجميل، كان الغرض منها أن يعقدوا في بلدة فلسطينية مجلس انتصار لأجل أن يؤكدوا لآسيا قوة بطش المملكة المصرية.[٣١]

وعلى الرغم من أن حرب السنة الثالثة من حكم «بسمتيك الثاني» كانت بلا نزاع أول حملة مظفرة كسبتها الأسرة الساوية منذ زمن بعيد جدًّا، فإن الاضطهاد الغشوم الذي وقع وقتئذ على ملوك النوبة القدامى، هذا بالإضافة إلى المظاهر التي قدست هذا الانتصار، كل ذلك يفسر بوضوح أن هذه الحرب قد انطلقت من عقالها لا عن رغبة مصرية، بل بسبب طموح الفاتحين الكوشيين: إذ لا نزاع في أن لوحة «تانيس» تدل تمامًا على أن التعدي من الوجهة المصرية كان قد أتى من قبل الكوشيين، والواقع أنه حوالي عام ٥٩٤ق.م وهو تاريخ تتويج «بسمتيك الثاني» كانت آسيا بوجه خاص لا بلاد النوبة

---

[٢٨] راجع: A. S., 38, P. 170; & P. 188 n. 7; Ibid. P. 169.

[٢٩] راجع: A. S. 25, 259; A. S. 5, P. 199, § II.

[٣٠] راجع: Bull. Inst. 50, P. 198.

[٣١] راجع: Sauneron–Yoyotte, Sur le voyage Asiatique de Psammetique II, Vetus Testamentum, 1/2, P. 140–144.

هي التي كان يجب أن تسترعي انتباه ملك «سايس» بصورة مقلقة. فمنذ هزيمة «نيكاو الثاني» في «كركميش» كان ازدياد قوة «بابل» في فلسطين يعد تهديدًا خطيرًا لمصر.[٣٢]

ويصعب على الإنسان أن يتصور أنه حوالي هذا العهد كان في مقدور مصر أن ترسل جيشًا على السودان متحدية مناوشة جارتها الجنوبية عن قصد. والواقع أن الحرب التي شنها «بسمتيك الثاني» في أفريقيا كانت حرب دفاع لا حرب فخار. وعلى ذلك فقد كان من باب أولى أن «كور» (ملك) بلاد كوش رأى أن يفيد من الأحوال الجارية؛ لأجل أن يعيد السياسة الإمبراطورية التي كان يتمتع بها ملوك «نباتا» الأول على مصر. ولا بد أن تجهيزاته الحربية كانت قد أقضت مضجع حكومة «سايس». وقد كان غرض حكومة «سايس» أن تعمل على اختفاء ذكرى الأسرة، التي كانت ذكراها يمكن أن تجد لها مبررًا في أعين الذين كان رأيهم يميل مع فراعنة الجنوب ذوي المطامح الطاغية على مصر. ولم يكن على ما يظهر لدى ملك كوش الوقت ليخطو مسافة بعيدة في مشروعه. فقد كان الجواب المصري عندما أحس استعدادات كوش غاية في السرعة، ولم يلبث أن انتهى بنصر باهر لم يتطلب أكثر من حملة واحدة على ما يظهر. ولم يتجاوز «بسمتيك الثاني» نفسه حدود «الفنتين»، وكان سبب ذلك بلا شك ألا يفقد حلقة الاتصال برسله الذين كانوا يحملون له الأخبار من آسيا. ومنذ أن بدأت الحرب في كوش، أخذ يظهر في فلسطين درءًا للخطر الذي كان يتهدد مصر.

وعلى ذلك فإن الحملة التي قام بها «بسمتيك الثاني» على مملكة «نباتا»، كانت قد حدثت في زمن أزمة سياسية خارجية للأسرة السادسة والعشرين، وهذه السياسة كانت بطبيعة الحال موجهة نحو آسيا بمقتضيات الحوادث. وهذا التحول كان سببه مظهرًا جديدًا يرجع إلى الادعاء بالسيطرة على مصر من قبل ملوك كوش منذ منتصف القرن الثامن ق.م، وقد كان هذا الادعاء لا يزال حيًّا كما يثبت ذلك الصل المزدوج الذي كان يلبسه أخلافهم، حتى بعد أن تقهقروا إلى بلاد النوبة، فقد كانوا لا يزالون يحملونه على جباههم في لباس رأسهم؛ أي إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ملوك مصر والسودان. والصلان يرمزان للبلدين مصر والسودان.

---

[٣٢] راجع عن الحرب التي قامت به ملوك «سايس الأول»، وبين بابل كتاب De Meulenaere, Herodotos Over. De 26me Dynastie P. 54–60.

وإذا كانت ولاية «طيبة» في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وهي التي كانت محكومة بالمتعبدة الإلهية التابعة لأسرة كوشية قد ظهرت بأنها كانت في قبضة هذه المتعبدة تمامًا، فإن الكوشيين كانوا مضطرين في أحوال عدة أن يعيدوا فتح الوجه البحري، حيث كان الأمراء المحليون هناك وبوجه خاص حكام «سايس»، قد ظهر أنهم انتهزوا الفرص لنزع نيرهم عنهم. فنجد على التوالي «بيعنخي» و«شبكا»، ويحتمل كذلك «شبتاكا» وأخيرًا «تانوتآمون» كان يجب عليهم أن ينزلوا إلى الدلتا، ويسكنوها لأجل أن يشعروا القوم بسلطانهم. وبعد أن اضطرت جيوش «آشوربنيبال» الملك «تانوتآمون» أن يرتد إلى بلاد النوبة، فإن الأخير قد استولى ثانية على إمارة «طيبة»، وإذا أمكن الإنسان أن يوحده مع ملك مصر المسمى «تمنتيس»، وهو الذي على حسب قول المؤرخ «بوليين» قد نازل الملك «بسمتيك»، وهزم على يديه بالقرب من «منف»،[٣٣] فإنه يجب أن نعترف بأن آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين كان قد حاول كرة أخرى أن يعيد فتح الوجه البحري. ويمكن أن الحالة المستديمة لإعادة الفتح الكوشي لمصر قد تركت لورثة الملك الأمل في توحيد القطرين من جديد، تحت صولجان ملك بلاد كوش ومصر معًا.

ولا نزاع في أن «بسمتيك الأول» الساوي كان قد أفلح منذ عام ٦٥٥ق.م في الاستيلاء على «طيبة»، وفي أن يولي على عرشها ابنته «نيتوكريس»؛ لتكون خلفًا للمتعبدة الإلهية الكوشية، كما أفلح في وضع حامية في «الفنتين».[٣٤] ولدينا قطعة من متن عثر عليها في «إدفو» تكشف لنا عن أن «بسمتيك الأول» كان قد أرسل في وقت ما من حكمه حملة حربية إلى بلاد «واوات»؛ أي إلى بلاد النوبة السفلى.[٣٥]

هذا ويوجد في مصر نفسها ما يدل على أن الأسرة النباتية كان لها بعد خروجها من مصر أعوان. ولا نزاع في ذلك إذ نعلم أنه في خلال القرن الثامن ق.م قد توطن في إقيم «طيبة» طبقة أشراف نوبيين، كما أن الأسرة الكبيرة المحلية كانت ملتفة حول الحكم الكوشي. فمثلًا نجد أن أمراء كوشيين كانوا يشغلون وظائف كبيرة بين كهنة «آمون».[٣٦]

---

[٣٣] راجع: Polyen, Stratagemata, 7, 3; cf Hopfner, Fontes, 342, 15.

[٣٤] راجع: De Meulenaere, Herodot. Over., P. 38–40.

[٣٥] راجع: Bull. 5, P. 201 No. 3.

وكذلك تدل أسماء عظماء رجال الإدارة الطيبية بوضوح على أنهم من أصل كوشي، مثال ذلك «كارابيسكن»[٣٧] و«أريجاديجان»[٣٨] و«كاررخي-أماني»،[٣٩] والظاهر أن الأسرة الخامسة والعشرين كانت خلافًا لذلك قد حابت الكهنة المحليين المختلفين، وبخاصة كهنة «منف»، وهي المدينة التي كان قد اتخذها مقرًّا له كل من «شبكا» و«تهرقا» كما تدل على ذلك النقوش.[٤٠] ومن جهة أخرى يلحظ أن بعض الأمراء المحليين هناك قد فضلوا بلا شك أن يكونوا تحت سلطان فراعنة الجنوب عن أن يكونوا تحت حكم ملك مصر، وذلك مقاومة لمطامع ملك «سايس». والواقع أن فراعنة الجنوب؛ أي الكوشيين كان معترفًا بهم لدرجة عظيمة حتى إن «بسمتيك» لم يكن يفكر في عدم شرعيتهم، وكان عليه أن يسلم بأنه خلفهم،[٤١] ففي الأزمان الأولى من تسلطه على الوجه القبلي نلحظ أن «بسمتيك» قد احترم ظاهرًا جزءًا من الميزات الخاصة بأمراء الكوشيين أصحاب «طيبة»، فمثلًا نجد أن «منتومحات» وابنه «نسبتاح» من بعده، قد حافظ كل منهما في عهد «بسمتيك الأول» على لقبه «عمدة نو» (أي: طيبة) وحاكم الوجه القبلي. وفي «إدفو» نجد أن عمدتها «خنس-أرديس»، ظهر أنه كان يقوم على ما يظهر في العهد الساوي بدور حاكم الوجه القبلي، وهي الوظيفة التي كان والده «باثنف» يشغلها في عهد الكوشيين.[٤٢] ولكن على الرغم من هذه السياسة المهادنة، فإن مملكة كوش قد بقيت مركز تجمع للخارجين على مصر، إذ كان يتوجه صوبها رجال الأرستقراطية الحربية المصرية اللوبية، عندما حرموا استقلالهم على يد «بسمتيك الأول»، وأصبحوا يتوجسون خيفة من الجنود المرتزقة الأجانب الذين كان يعتمد عليهم «بسمتيك»، وأخيرًا هجروه[٤٣] بعد أن ضاقت بهم السبل.

---

[٣٦] راجع: Gauthier, L. R., 4, 23 & 41; A. S. 25, 25–31.

[٣٧] راجع: P. M. I, 194.

[٣٨] راجع: Kirwan, Melanges Maspero I, 373–377; & Kuenz, B. I. F. A. O. 34, P. 144 Pl. 1–2.

[٣٩] راجع: Gardiner-Weigall, Topogr. Cat. Theban Necrop., 36, (223).

[٤٠] راجع: Bull. 50, P. 202 No. 1.

[٤١] راجع ذكر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (بسمتيك الأول) Rev. D'Eg., 8, P. 232–234.

[٤٢] راجع: Yoyotte, Trois Notes pour Servir à l'histoire d'Edfou, Kemi XII.

[٤٣] راجع: De Meulenaere, Herodot, P. 41–43.

وعلى أية حال فإن أسرة «نباتا» كانت قد حافظت على بعض ثرائها، على الرغم من الهزمات التي حلت بها. والواقع أن الإنسان إذا قدر الآثار العدة التي تركوها، وما دلت عليه محتويات جباناتهم من ثروة فإن أخلاف «تانوتآمون» وهم «أتلانرسا» Atlanersa و«سنكامان سكن» Senkamaniskin و«أنلاماني» Anlamani و«أمتالقا» Amtalqa و«مالناقن» Malenaqen قد ظهروا بأنهم كانوا ملوكًا أقوياء. وسنتحدث عنهم.[٤٤] ومما يؤسف له أننا نجهل حتى الآن من هو الملك من بين هؤلاء الذين ذكرناهم الآن كان يحارب بسمتيك الثاني، ولكن على حسب آخر تأريخ للملوك كوش اقترحه «ريزنر»، فإن حرب سنة ٥٩٤ق.م قد جدد على وجه التقريب حوالي حكم الملك «أسبلتاه»،[٤٥] وعلى حسبه يكون حكم «أسبلتا» هذا من عام٥٩٣ لغاية ٥٦٨ق.م، والواقع أنه إذا كان الجيش الكوشي قد وجد في إقليم «أبو سمبل»، كما هو المعترف به بوجه عام عند موت الملك «اللاماني»،[٤٦] فإنه يمكن الفرض أنه في هذا العهد كانت على وجه التقريب اللحظة التي كانت القوات الساوية تنازل فيها الجيش الكوشي.

وعلى ذلك فإنه من المحتمل جدًّا أن لوحة «سنكامان سكن» التي عثر عليها في «منف»[٤٧] لا بد كانت قد أتت من غنيمة الجيش المصري. وقد يكون من الأمور المغرية، وإن لم تكن من المؤكدة تمامًا أن يجد الإنسان في جبل «برقل» في تهشيم الطغراءات التي على اللوحات التي تدعى «الطرد»،[٤٨] وعلى لوحة تتويج «أسبلتا»[٤٩] وكذلك في تهشيم تماثيل «تهرقا» و«تانوتآمون» و«سنكامان سكن» و«أنلاماني» و«أسبلتا»[٥٠] شواهد على مرور جنود القائدين «أحمس» و«بوتاسيمتو» بهذه الجهات.[٥١] ومهما يكن من أمر فإنه في بداية القرن السادس قبل الميلاد، كان بدأ عصر حرج للحوادث التي ظهرت فيها كوش بمظهر الدولة الطامحة في ملك مصر لإعادة إمبراطوريتها القديمة. والواقع أن إمارة

---

[٤٤] راجع كذلك: Bull. Inst. L, P. 202 No. 6.

[٤٥] راجع: Reisner, J. E. A., 9, P. 75.

[٤٦] راجع: Bull. Inst. Ibid, P. 203 No. 2.

[٤٧] راجع: A. S., 10, P. 183-184.

[٤٨] راجع: Bull., Ibid. P. 203 No. 4.

[٤٩] راجع: Mariette, Mon. Div., Pl. 9; & L. R., 4, P. 55 (8/1).

[٥٠] راجع: Bull., Ibid. No. 6.

[٥١] راجع: Ibid, N. 7.

«طيبة» التي كانت قد اختفى فيها حكم المتعبدة الإلهية الكوشية المسماة «شبنوبت»، كانت تحت حكم مملكة الشمال مدة ستين عامًا، وقد حل محل العظماء الذين كانوا في عهد السيادة النوبية آخرون من الموظفين الذين ينسبون إلى الدلتا ولو جزئيًّا، فمنذ حكم «بسمتيك الأول» نقلت حكومة «إدفو» إلى شريف من أشراف الدلتا الغربية يدعى «اسناوياو»،[٥٢] وكان «بابس» مدير بيت المتعبدة الإلهية «عنخنس نفر أب رع» على ما يظهر من شرقي الدلتا،[٥٣] وكان ابن سلفه «أيا»[٥٤] يدعى «بدي حور رسني»، ونفس هذا الاسم كان يحمله خلفه[٥٥] ومن المحتمل أن كلًّا منها كان من بلدة «سايس»، وهي التي كان يعبد فيها «حور-رسني»، وهو من أهم المعبودات؛ ومن ثم نجد أن النتيجة التي كسبتها سياسة الهضم التي استعملتها الأسرة الخامسة والعشرون كانت في طريقها إلى الزوال.

فمن الأمور البارزة أنه منذ السنة الأولى من حكم «بسمتيك الثاني» قد نصبت متعبدة إلهية، وهي ابنته «عنخنس نفر اب رع» بجوار عمتها «نيتوكريس»، التي تبنتها فقدس بذلك إرادة أسرته بضم إمارة «طيبة» إليه،[٥٦] ومع ذلك فإن المملكة الساوية التي كانت مهددة من قبل آسيا لم تكن قد قامت بأي عمل جدي ضد مناهضتها «نباتا»، وكانت مملكة «نباتا» في الواقع تنظر دائمًا إلى موضوع ضم البلاد المصرية إلى ملكها بعين الرضا، كما كانت ترى أن مملكة كوش كانت تعمل مستعدة على ما يظهر للحرب حوالي عام ٥٩٤ق.م، غير أن مبادرة «بسمتيك الثاني» بالهجوم عليه كانت قد صدمت الأطماع الإمبراطورية التي كانت تختلج في صدر «كور» كوش، كما أكدت أن في الكنانة جيشًا قويًّا يحمي حماها. وعلى أية حال فإن النصر الذي ناله المصريون لم يكن حلًّا نهائيًّا لهذا الموضوع.

---

[٥٢] راجع: A. Z., 44, P. 42–54.

[٥٣] راجع اقرن بذلك تمثاله الذي عثر عليه في «البوهة» مركز ميت غمر. راجع: Borchardt, Stat., 3, P. 155–156.

[٥٤] راجع: J. N. E. S., 7, P. 165.

[٥٥] راجع: Ibid, P. 165–166.

[٥٦] راجع: A. S., 5, 84–90.

وليس من المؤكد أن المصريين اضطروا إلى حمل السلاح لمحاربة بلاد النوبة ثانية، غير أن كثرة النقوش الصخرية في إقليم «أسوان» بأسماء «بسمتيك الثاني»، تكشف لنا فعلًا إلى حد ما عن أن الملوك الساويين كانوا مهتمين منذ ذلك الوقت بأحوال حدودهم كثيرًا جدًّا. ولكن من جهة أخرى نجد أن بعض المؤرخين يفسر وجود هذه النقوش الكثيرة التي من عهدي «بسمتيك الثاني» و«إبريز»، على أنها دليل على نشاط محاجر «أسوان» في حكميهما.[٥٧] ويذكر لنا «أسحور» الذي عاش في عهد «إبريز» صراحة أنه كان قد نصب حاكمًا لتخوم الجنوب؛ لأجل أن يصد غارات فعلية من جانب المتوحشين.[٥٨] ولدينا قصة صغيرة نقلًا عن «بلوتارك» نجد في ثناياها الأدلة التي بقيت عن موضوع إقليم «الفنتين»، وقد وقعت بين ملك كوش و«أحمس الثاني»، وتتلخص القصة في أن «أحمس» أمره ملك كوش أن يشرب البحر، ولما أراد أن يتخلص من هذه الورطة طلب (بنصيحة «بياس» أحد الحكماء السبعة) من قرنه أن يوقف مقدمًا الأنهار لأجل أن يكون المشروع ممكنًا، وعلى عكس ما يقول البعض، فإن هذه القصة لم تكن في واقع الأمر خرافة تخيلها الكاتب الإغريقي، بل من المحتمل أن الكاتب الإغريقي قد أفاد من قصة مصرية، ووضعها في قالب إغريقي. والواقع أن هناك تقليدًا مصريًّا يجعل من «أحمس» سكيرًا مدمنًا، ومن الممكن أنه قد راهن على أن يشرب مقدارًا كبيرًا من النبيذ القوي.[٥٩]

ولدينا تقرير كتب بالديموطيقية في السنة الواحدة والأربعين من حكم الملك «أحمس»، يشير إلى اجتياز كوكبة صغيرة من الجنود الشلال الأول متجهة نحو الجنوب.[٦٠] غير أن ذلك لا ينسب على ما يظهر إلى حملة بل تدل شواهد الأحوال على أن هذه الكوكبة كانت تقوم بمراقبة حربية على بلاد النوبة السفلى. وقد كانت الأحوال تحتم وجود نظام دفاعي قوي خوفًا من إغارة النوبيين.

ومن ثم نفهم أن مملكة كوش على الرغم من غزوة عام ٥٩١ق.م كانت دائمًا مركز خطر كافٍ بوصفها ملجأ للخارجين، كما كانت تقوي العقبات التي تواجهها سياسة

---

[٥٧] راجع: De Meulenaere, Herod., P. 119.

[٥٨] راجع: Louvre, A. 90, col. 1; L. R., 4, P. 112.

[٥٩] راجع: Bull., Ibid, P. 193 Note 6.

[٦٠] راجع: Erichsen, Klio 34, P. 56–61 (cf. C d. E., 18, 251–253 & De Meulenaere, Op. cit., 98).

الأسرة الساوية في داخل البلاد؛ فقد حدث بعد انتصار «بسمتيك الثاني» على النوبيين بزمن قليل أن ثار جنود مرتزقون على «إبريز»، وحاولوا أن يجدوا لهم ملجأ في كوش.[٦١] وهناك سبب أقوى في أن تكون المعارضة قوية في ولاية «طيبة»، التي لم يكن قد تم اندماجها فعلًا في النظام الإداري للدلتا على ما يظهر، إلا بعد نصف قرن تقريبًا من بعد عهد «بسمتيك الثاني»، إذ نجد أن إحلال الديموطيقية بدلًا من الخط الهيراطيقي الشاذ الذي كان يستعمل في ولاية «طيبة» لم يحدث إلا في خلال حكم «أحمس الثاني».[٦٢]

وعلى الرغم من الاضطهاد المتأخر الذي صوَّبه هذا الملك الأخير على الأسرة الخامسة والعشرين، فإنه كان لا يزال يوجد شارع في «منف» يذكرنا اسمه بالملك «شبكا» في عهد البطالمة،[٦٣] هذا ونلحظ أن طغراءات كل من «شبكا» و«تهرقا» التي كانت قد محيت أعيدت ثانية في المعابد الطيبية في العهد الهيلاني.[٦٤] يضاف إلى ذلك أن معظم القصص التي وضعها الكتاب الكلاسيكيون عن الكوشيين، وتسلطهم على مصر تظهر لنا ملوك كوش في صورة محببة، فمثلًا يظهر «سبكون» بأنه رجل صالح تقي، وبقدر ما كان إنسانًا كان صاحب أدب راق.[٦٥] وقد ظهر «تركوس» (تهرقا) بصورة مناقضة للحقيقة مساويًا للملك «سوزستريس»،[٦٦] هذا بالإضافة إلى فضائل الكوشيين والغنى الخيالي لبلادهم النائية، وكذلك القصص العدة التي كان مفعمًا بها العصر الفارسي، والميل الظاهر من قبل المصريين للقوم الذين وقفوا حجر عثرة في وجه الغاشم الممقوت (ملك الفرس)، هذا إلى تقاليد عدة تشهد بمقدار تعلق بعض المصريين بالأسرة الكوشية، وكيف أن هذا التعلق قد بقي حيًّا على الرغم من «بسمتيك الثاني» وانتصاره الذي احتفل به بمبالغة كبيرة، وما قام به من اضطهادات انصبت على تهشيم آثار الكوشيين ومحو أسمائهم.

---

[٦١] راجع: Louvre A. 90 cf Bull., 50, P. 177, No. 3.

[٦٢] راجع: Malenine, L'Origine du demotique Comm. XXIe Congrès intern. Des Orientalistes.

[٦٣] راجع: L. R. IV, P. 16 No. 1.

[٦٤] راجع: Leclant, Rev. d'Egypte 8, P. 115–120.

[٦٥] راجع: Herod., 2, 137 et 139; Diodor, 1, 65.

[٦٦] راجع: Strabon I, 3:21 et 15, 1:6, cf CDE, 22, 239–44.

ونجد في إمارة «طيبة» التي كانت خاضعة لحكومة الشمال أن العلاقات مع المملكة الجنوبية، قد بقيت ضاربة بأعراقها في تلك البقعة كما كانت الحال في عهد «بطليموس ابفان»، حيث نجد أن الإمارات الثائرة قد ارتمت في أحضان الأمراء النوبيين[٦٧] مجددين بذلك الحركة الساوية، إذ نجد أن الملك اللاجيدي قد أمر بتهشيم طغراءات خلفه العظيم «ارجامن» في معبد أرستوفيس في «الفيلة».[٦٨]

[٦٧] راجع: Preaux, CDE 11, P. 530–536; Alliot, La fin de la résistance Egyptienne aous Epiphane Comm. Au VI Congrès Int. de Papyrologie.

[٦٨] راجع: L. R. IV, P. 425 (11).